أوهام الغذامي في نقده الثقافي لشعر المتنبي

أ.د. نجم عبد علي رئيس

اتهم الدكتور عبد الله الغذامي في كتابه (النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية) الشاعر العربي منذ الجاهلية الأولى حتى يومنا هذا اتهامات شتى ، فهم شحّاذون ، وحمّلهم مسؤولية صناعة الطواغيت في تاريخنا القديم والحديث والمعاصر ، وتناسى الدكتور الغذامي أن الطغيان صفة نفسية ، قبل كل شيء في الإنسان ، يقول الله جلَّ في علاه : [كلّا إنَّ الإنسانَ لَيطغى أنْ رآهُ استغنى] {1} ، ويقول مخاطباً النبي موسى {ع} : [اذهبْ إلى فرعون إنه طغى] {2} ، ويقول على لسان فرعون : [فقال أنا ربّكم الأعلى] {3} . ولنا أن نسأل الدكتور الغذامي هل كان الشعر والشعراء وراء صناعة طغيان فرعون ؟

لم يلتفت الدكتور الغذامي إلى المتغيرات والظروف التي أحاطت ، وكوّنتْ ما اصطلح عليه من مصطلحات الأنساق الثقافية العربية ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر : النسق الثقافي ، نسق الفحولة وفحل الفحول ونسق الاستفحال ، نسق الطبقة والطبقيات ، النسق المضمر ، النسق الناسخ ، الشاعر النسقي ، الصحيفة النسقية ، نسقية المعارضة ، النسق المخاتل ، تهشيم النسق ، وصراع الأنساق ، فضلاً عن صناعة الطاغية ، والصنم البلاغي ، واختراع الفحل ، واختراع الصمت ، والخروج على المتن ، وما إلى ذلك من مسمّيات ، جرى الدكتور الغذامي وراءها ليحمّل تبعات ما جرى في تاريخ الأمة العربية من نكسات على الشعر والشعراء والنقد والنقاد .

ولم يستثنِ الدكتور الغذامي واحداً من شعراء العرب ، فامتدّت اتّهاماته لهم على مدى العصور وطالتهم جميعاً ، ولم يسلم من نقده الثقافي كبار الشعراء من القدماء والمحدثين . وكان من جملة ضحاياه شاعر العراق والعرب الأكبر أبو الطيّب المتنبي . وفي الوقت الذي تحتفي الأمم بكبار مبدعيها وشعرائها ، فمن حقّ العراق وأمّة العرب أن يحتفيا بالمتنبي ، لا سيّما أنّ شعره قد اكتسب صفة العالمية ، بعد أن تُرجم ديوانه إلى لغات العالم الحيّة كافّة . ولقد سمَّى أهل المغرب ابن هانئ

متنبي المغرب ، وسمَّى الهنود طاغور متنبي الهند ، وسمَّى الفرس سعدي الشيرازي متنبي الفرس . وكلّ ذلك يُشير إلى منزلة المتنبي العظيمة بين سائر الأمم .

وإذا كان الدكتور عبد الله الغذامي قد وصف حداثة المتنبي في كتابه (المشاكلة والاختلاف قراءة في النظرية وبحث في الشبيه المختلف) ، بقوله هو صاحب : " رؤية شعرية جديدة ... تتمخّض عن شخصية نصوصية فريدة ومتميّزة ومختلفة ، وكلّ ما فيها من تشابه فهو شبه يُفضي إلى اختلاف " {4} ، فإذا بالدكتور الغذامي يتّهمه في كتابه (النقد الثقافي) بأنّه (شحّاذ عظيم) ، يقول الدكتور الغذامي : " المتنبي مُبدع عظيم أم شحّاذ عظيم ؟ أم هو الاثنان معاً ؟ وهل ثقافتنا علّة أو علل نسقيّة ، تجعلها خطاباً منافقاً غير واقعي ، وغير حقيقي وغير عقلاني ؟ وهل الشعراء مسئولون عن ذلك ؟ " {5} ، وهي مجموعة أسئلة يطرحها لإثبات أنَّ المتنبي شحّاذ عظيم ، كعادته في طرح أيّ سؤال في كتابه (النقد الثقافي) ، لتكون الإجابة بالإثبات لا بالنفي . و : " كأن بغذامي اليوم ليس هو نفسه بالأمس ، فبعد أن أشاد به (في المشاكلة والاختلاف) ها هو في (النقد الثقافي) ينقض كل ما ذهب إليه سابقاً ، حيث ينزع عنه كلَّ صفة إيجابية ، فينعته بالشحّاذ والكذّاب " {6} !! ولا ندري ماذا سيفعل الدكتور الغذامي بكتابه (المشاكلة والاختلاف) ، بعد أن رمى الشاعر باتّهامات نسقية شتّى كما تحلو له تسميتها في كتابه (النقد الثقافي) .

ولا ندري إن كان الدكتور الغذامي قد اطّلع على سيرة المتنبي وأخباره أم لا ، ففي أوّل لقاء للشاعر بالأمير الحمداني سيف الدولة في حلب : " اشترط المتنبي على سيف الدولة .. أنَّه إذا أنشده مديحه ، لا يُنشده إلا وهو قاعد ، وأنّه لا يُكلّف تقبيل الأرض بين يديه ، فنُسب إلى الجنون ، ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط " {7} ، وهي شروط لم يفرضها شاعر قبل أبي الطيّب على أمير ، فكانت ثورة في ذلك الوقت ، على وضع يُزري بالشعر والشعراء ، ولقد أدرك أبو الطيّب أنَّ الشعر لا يقلّ مرتبة عن الإمارة : " وفي ضوء هذا الإدراك دكّ العادات والتقاليد والأعراف التي جعلت من الشاعر شحّاذاً أو متسوّلاً يستجدي الملوك والأمراء " {8} ، وإنَّه لأمرٌ عجيب أن يشترط الشحّاذ على المشحوذ منه شروطاً ، ويقبلها الأمير الحمداني دون أيّ اعتراض !!

وإذا كان الدكتور الغذامي قد تجاهل هذه الرواية التي تناقلتها المصادر وكتب الأدب ، فليس بمقدوره أن يتجاهل طلب الوزير المهلّبي في بغداد ، من المتنبي أن يمدحه ، فلم يُجبه الشاعر إلى

مبتغاه ، مما تسبّب في أن يُغري المهلبي أبا علي الحاتمي ت 388 هـ بتأليف رسالة ، يذمّ فيها شعر المتنبي ، فما كان من الحاتمي إلا أن يؤلّف رسالتين في ذمّ شعر المتنبي ، بدلاً من رسالة واحدة ، الأولى : (الموضّحة في ذكر سرقات المتنبي والساقط من شعره) ، والثانية (الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو في الحكمة) .. فأيّ شحاذ يرفض مدح وزير الخليفة العباسي ؟

وتأتي المتنبي دعوة ثانية من وزير ، ولكن هذه المرّة من وزير أديب في أصفهان ، وهو الصاحب بن عباد ت 385 هـ ، ليمدحه ، ولكنّ الشاعر ترفّع عن مدحه ، فيضطرّ الوزير إلى تأليف رسالة يذمّ بها شعر المتنبي ، ليحفظ بها ماء وجهه ، وهي رسالة (الكشف عن مساوئ شعر المتنبي) .

وفي مصر كافور رفض المتنبي مدح وزيره ابن حنزابة ، فكان ثمن الرفض أن يُؤلِّف ابن وكيع التنيسي ت 393 هـ (المُنصف للسارق والمسروق منه) بإيعاز من ابن حنزابة ، فأيّ شحاذ يرفض مديح وزراء ، وكان الشعراء يتشبّثون بمدح والٍ ، أو قائد عسكري أو قاضٍ أو كاتب ؟! ومشكلة الدكتور الغذامي أنّه يؤمن بأنّ للشاعر نصّين ، الأول نصّه الشعري ، والثاني ما سيق حوله من أخبار ، حتّى لو كانت محض تلفيق ، يقول الدكتور الغذامي : " ولكلّ شاعر قديم نصّان أحدهما أشعاره المرويّة ، والآخر قصص مبثوثة في الكتب " (9) ، فكيف تجاهل كلّ تلكم القصص المبثوثة عن المتنبي في الكتب ؟!

فإذا انتهينا من قضية تسوّل المتنبي التي ألصقها الدكتور الغذامي زوراً وبهتاناً بالشاعر ، ننتقل إلى صورة (الأنا) في شعر المتنبي ، يقول الدكتور الغذامي : " فالمتنبي وهو المترجم الأكبر للضمير النسقي ، مما يجعله شاعرنا الأول (الأب النسقي) يقول : {من الطويل }

وإنّي لنجمٌ تهتدي بيَ صُحبتي ..... إذا حالَ من دونِ النجومِ سحابُ
غنيٌّ عن الأوطانِ لا يستفزُّني ..... إلى بلدٍ سافرْتُ منه إيابُ " {10}

ويبدو أن الدكتور الغذامي يتجاهل طبيعة الشاعر النفسية ، وتمرّده على نمطية قصيدة المدح الموروثة ، فهذا الذي لاحظه الدكتور الغذامي إنْ هو إلا غيض من فيض ، وظاهرة عامّة في شعر

المديح عند الشاعر ، وليستَ هذه الأنا إلا من باب الاعتداد والفخر بالنفس في قصيدة المدح ، ومن باب تقاسم القصيدة بين الشاعر والممدوح ، فضلاً عن أن تضخّم الأنا هنا ، يُلغي نسق صناعة الممدوح (الطاغية) الذي ادّعاه الدكتور الغذامي ، ذلك أنَّ الطاغية أيّ طاغية لا يرضى ، بأن يُشركه أحد في المفاخر والأمجاد ، على أنّ هذين البيتين اللذين ذكرهما الدكتور الغذامي ، هما من قصيدة في مدح كافور ، وقد افتخر المتنبي بنفسه في قصائد مديح قبل لقائه كافوراً ، فكيف لا يفتخر ، وهو أمام كافور الذي كذب عليه ؟

وينتقي الدكتور الغذامي بيتاً آخر من شعر المتنبي متَّخذاً منه مثالاً للشاعر النسقي الذي تتضخّم عنده الأنا مُكذّباً دعواه ، يقول الدكتور الغذامي عن بيت المتنبي : {من الطويل}

"وجنّبني قربَ السلاطينِ مقتُها ..... وما يقتضيني من جماجِمِها النَّسْرُ

والمعنى يُشير إلى دعوى الشاعر الكاذبة ، بأنّه يتجنّب السلاطين ، وأنّ النسور تنتظر منه أن يقدّم لها جماجم السلاطين ، بعد أن يقتلهم " {11} ، وقد فطن القدماء ومنهم ابن فورّجة ت نحو 455 هـ إلى هذا المظهر في قصيدة أبي الطيب ، وذكر في كتابه (الفتح على أبي الفتح) : " ولقيتُ بعض المتكلّفين الذين يزعمون أنَّهم لقوا أبا الطيب ، وقرأوا عليه شعره ، يزعم أنَّه حُبِس على هذا البيت ، وقال له عليّ بن محمّد الأنطاكي : ما هذه الجرأة عليّ ، ومواجهتك إيّاي بهذا المقال في السلاطين ، وأنا منهم ؟ فاعتذر بأنْ قال : إنّما عنيتُ : مقتهم إيّاي لا مقتي لهم ، وعنيتُ بالنسْر : الأخذ والاختطاف .. وعنيْتُ بالجماجم : الأكابر والسادات . فقلتُ له : فما صنع بقوله :

ولا تحسبَنَّ المجدَ زِقّاً وقَيْنَةً ..... فما المجدُ إلا السيفُ والفَتْكَةُ البِكْرُ
وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وأنْ تُرَى ..... لك الهَبواتُ السودُ والعسكرُ المجْرُ

فلم يجِرْ جواباً ، وهذا من الكذب الذي لا يُبارك الله فيه ، إذ الرجل له في ذاك عادة ، وهو يعدّه جرأةً وقدرة ، وقلّة احتفال " {12} ، فانظر كيف ردّ ابن فورّجة هذه الرواية المُختلقة على أبي الطيب ، فقد كان فخره بنفسه أمام الملوك مذهباً ، جرت به طبيعته المتمرّدة .

وكان من نتيجة ذلك التمرّد أنْ جعل المتنبي لقصيدة المدح صورتين : صورة له ، وصورة للممدوح : " حيث لا تكتمل صورة الممدوح إلا باكتمال صورة الشاعر ، وحيث لا يبدو ظلّ الأوّل إلا وقد اقترن به ظلّ الآخر ، مسامتاً له في الحجم وطول القامة " {13} ، وكأنّي بالمتنبي قد افترع بنية جديدة لقصيدة المدح ، وكأيّ صيّاد ماهر، يقتنص فرائسه ، كان يختار من القصيدة حصّته ، من الحديث عن نفسه ، والفخر والمباهاة بها : مطلع القصيدة ، أو قلبها ، وأحياناً خاتمتها ، وهذا وحده يتقاطع كلّيّاً مع تهمة التسوّل التي ألصقها الدكتور الغذامي بالشاعر ، كما يتقاطع في ذات الوقت بادّعاء صناعة الطاغية ، فأيّ طاغية يحتمل مباهاة الشاعر بنفسه ؟ ويتقاطع كلّياً مع المؤسسة الثقافية المتشعرنة التي أرادت للشعراء أن يكونوا خدماً للملوك والأمراء .

وقد أودع المتنبي بعض مفتتحات قصائده المدحية ما جاشت به روحه : " وما يحلم به من حروب طاحنة يُثيرها ، وغارات ماحقة يشنّها ، ودول يقوّض أركانها ، وسلطان يشيّد بنيانه ، ويُقيم دعائمه على أسس من الحديد والدم " {14} ، ومن ذلك قصيدته في مدح المُغيث بن علي بن بشر العجلي { من الوافر } :

فؤادٌ ما تُسلّيهِ المُدامُ ..... وعمرٌ مثلُ ما تهبُ اللئامُ
ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ ..... وإنْ كانتْ لهم جثثٌ ضخامُ
وما أنا منهمُ بالعيشِ فيهم ..... ولكنْ معدنُ الذهبِ الرغامُ {15}

ويبدو أنَّ أفكار التمرّد على نسق (صناعة الطاغية) ، كما يحلو للدكتور الغذامي أن يُسمّيه ، التي استغرقت سبعة عشر بيتاً في هذه القصيدة ، كانت مألوفة لديه في وقت مبكّر ، وتجد تلك الأفكار بصورة أكثر دقّة في قصائد أخريات {16} ، فيُعلن ثورته ويواجه بها ممدوحه ، على غير ما هو شائع عند غيره من الشعراء ، كقصيدته التي مدح بها علي بن عامر الأنطاكي {17} ، حيث تطغى شخصيته على شخصية (الطاغية) الممدوح ، فيتحدث عن نفسه في سبعة عشر بيتاً ، ثم يتناول ممدوحه بثمانية أبيات ، ويرجع إلى نفسه من جديد ليُشركها مع (الطاغية) الممدوح ، كما يحلو للدكتور الغذامي أن يُسمّيه .

وقد يلجأ إلى التعبير عمّا تجيش به نفسه بعد مقدّماته النسيبية ، كما في قصيدته التي مدح بها الحسين بن إسحق التنوخي ، وليس في أبيات المديح في هذه القصيدة : " ما يرتفع إلى مثل قوله : {من الطويل}

يُحاذرُني حتفي كأنّيَ حتفُهُ ..... وتتكُزُني الأفعى فيقتُلها سُمّي
طوالُ الرُدينيّاتِ يقصفُها دمي ..... وبيضُ السُريجيّاتِ يقطعُها لحمي " {18}

وليس بغريب على المتنبي أن يختتم بعضاً من قصائده بما يعتلج به فؤاده ، من همّة عالية ، فقد اختتم القصيدة التي مدح بها المُغيث بن عليّ بن بشر العجلي بقوله : {من البسيط}

وإنْ عمرتُ جعلْتُ الحربَ والدةً ..... والسمهريَّ أخاً والمشرفيَّ أبا
بكلِّ أشعثَ يلقَى الموتَ مبتسماً ..... حتّى كأنَّ له في قتلِهِ أرَبا
قُحٍّ يكادُ صهيلُ الخيلِ يقذفُهُ .....عن سرجِهِ مَرَحاً بالعِزِّ أو طرَبا
فالموتُ أعذَرُ لي والصبرُ أجملُ بي .....والبَرُّ أوسعُ والدنيا لِمن غلبا {19}

وإذا كان شاعر كالمتنبي يُدرك أنَّ موهبته تفوق مواهب شعراء زمانه ، أفليس من حقه أنْ يفاخر بهذه الموهبة ؟ ومن يدري ؟ فلعلّه كان يمدح نفسه أحياناً فينسى ممدوحه ، بل إنَّه كان يتعمّد أن يُثني على نفسه قبل الثناء على ممدوحه : " فكأنّ نفسه الكبيرة تأبى عليه ، أن يُطري أحداً قبل أن يؤدّي لها حقّها من التعظيم والإكرام " {20} ، فيُغنّي عواطفه ، وهذا ما يفسّر لنا كلّ تلك الثورة الجامحة التي تمور بها نفسه وتضطرب : " ولقد فخر غيره من الشعراء ، وباهوا بأصولهم ، وحدّثوا عن أطماعهم وطلبهم للمعالي ، ولكنك لا تجد غيره يسمّي ما طلبه (حقّاً) له : {من الطويل}

سأطلبُ حقّي بالقنا ومشايخٍ ..... كأنّهم من طولِ ما التثموا مُرْدُ " {21}

" وسخّر قوّته وعبقريّته في طلب هذا الحقّ " {22} ، وقُتل دونه ، إذ كان فخره بنفسه أمام الملوك مذهباً ، جرت به طبيعته المتمرّدة .

وخلافاً لما ظنّهُ الدكتور الغذامي ، فإنَّ المتنبي استطاع أنْ يجد للشاعر مكانته اللائقة به ، ولقد أصبح : " أوّل شاعر عربي وضع الشعر في مستوى الإمارة ، ووضع الشاعر في رفرف الملوك والأمراء ، وهو الشاعر الوحيد الذي قيل له : (ماذا أبقيت للأمير) ؟ " {23} . فما عادت مِدحة المتنبي تقليداً ذا رسوم محدّدة قارّة (نسقاً ناسخاً) كما يحلو للدكتور الغذامي أن يُسمّيها ، تقوم على إرضاء الممدوح (الطاغية) ، بل أصبحت غناءً لعواطف الشاعر وأمانيه : " وكان لهذا الاتّجاه أثره في نقل المِدحة العربية من المحدودية والضيق بشخص الممدوح إلى الشمولية والعمق ، فأضحت المِدحة تجسيداً للأهداف النبيلة والقيم العليا .. وأخذت تعبّر عن أهواء الفرد ونزعات الجماعة .. بروح من التمرّد والثورة " {24} ، على قيم المؤسَّسة الثقافية المتشعرنة والنسق الشعري والنقدي السائدين اللذين يجعلهما الدكتور الغذامي قيماً فاعلة في شعر المتنبي .

لقد فرض فنُّ أبي الطيّب الشعري على الممدوح أن يتنازل عن عليائه ، فينظر إلى الشاعر على أنّه صاحب مجد لا يقلّ عن مجده ، وهذه قضيّة جديدة لم نقرأ لها حالة مماثلة قبل أبي الطيّب : " فقد هيّأ له شعره ، والمديح خاصّة مكانة تخشى منها الملوك ، وينحسر إزاءها جبروت الطغاة " {25} ، فعن صناعة أيّ طاغية يتحدّث الدكتور الغذامي ؟!

ويجرّ نسق (فحولة المتنبي) الدكتور الغذامي إلى اتهام الشاعر بتجرده عن الإنساني ، يقول الدكتور الغذامي : " وفي حال المتنبي من الواضح أنّنا أمام شاعر مكتمل النسقية ، فهو أقلّ الشعراء اهتماماً بالإنساني وتحقيراً له ، فهو الذي هزأ بالحبّ والتشبيب : أكلُّ فصيحٍ قال شعراً متيَّمُ ؟ وغيرُ فؤادي للغواني رميّةٌ ، وللخودِ منّي ساعةً ثمّ أنثني " {26} ، فأمّا إشارة الدكتور الغذامي إلى البيت الأول وتمامه : {من الطويل}

إذا كان مدحٌ فالنسيبُ المُقدَّمُ ..... أكلُّ فصيحٍ قالَ شعراً مُتيّمُ {27}

فالمألوف لدى الشعراء أنّهم إذا قصدوا المدح قدّموا النسيب ، والمتنبي هنا يُنكر عليهم هذا ، فهو يدعو إلى كسر نسق هذا الاعتياد ، يقول : أكلّ شاعر متيّمٌ بالحبِّ كي يبدأ بالنسيب ؟ : " فهو يثور على المطلع التقليدي المقرّ في عمود الشعر ، وهو البدء بالغزل مهما كان غرض القصيدة ! فكيف

صار الهدف أو الاعتراض الفني للمتنبي دليلاً على تحقيره للآخر ، والهزء بالحبّ والتشبيب " {28} ؟! وأمّا إشارته إلى البيتين الآخرين وتمامهما : {من الطويل}

وغيرُ فؤادي للغواني رميّةً ..... وغيرُ بناني للزجاجِ ركابُ
وللخودِ منّي ساعةٌ ثمّ بيننا ..... فلاةٌ إلى غيرِ اللقاءِ تُجابُ {29}

فهذان البيتان لا يُلغيان تغزّل المتنبي في أشعار كثيرة لا مجال لذكرها : " أما الحكم على المتنبي بأنَّه قليل الإنسانية ، لمجرَّد أنَّه رفض افتتاح القصائد بالتغزّل في النساء ، فهو حكم مبني على مقدّمات خاطئة ، وذلك أنَّ استنكار المتنبي استهلال القصائد بالغزل والنسيب لا علاقة له بموقف المتنبي ، من المرأة والحبّ ، كما يُومئ بذلك الغذامي مدفوعاً بنزعته إلى تأنيث القصيدة الحديثة ، مقابل ذكورية القصيدة القديمة " {30} ، ولو كان المتنبي باستطاعته التخلّص من المقدّمات النسيبية لصحّت مقولة الغذامي إلى حدٍّ ما ، ولكنّ الشاعر : " لم يستطع التخلص الكامل من استهلال القصائد بالغزل ، فقد حوى ديوانه أجمل وأحذق وأقوى أنواع الغزل الاستهلالي . كما ضمّت قصائده بين ثناياها أبيات في الحب والغزل لا تُجارى " {31} ، نكتفي منها بقوله : {من الكامل}

مثّلْتُ عينَكِ في حشايَ جراحةً ..... فتشابها كلتاهما نجلاءُ
وأنا الذي اجتلبَ المنيّةَ طَرْفُهُ ..... فمنِ المُطالبُ والقتيلُ القاتلُ {32}

وقوله : {من الطويل}

وفتّانةُ العينينِ قتّالةُ الهوى ..... إذا نفحَتْ شيخاً روائحُها شبّا
لها بشرُ الدرِّ الذي قُلِّدَتْ به ..... ولم أرَ بدراً قبلها قُلِّدَ الشُّهْبا {33}

وقوله في مفتتح قصيدة مدح بها أبا العشائر الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدويّ : {من الخفيف}

أتُراها لكثرةِ العُشّاقِ ..... تحسَبُ الدمعَ خِلْقةً في المآقي {34}

وقد علَّق القاضي الجرجاني على هذا البيت بقوله : " فإنَّه ابتداء ما سُمِع مثله ، ومعنى انفرد باختراعه " {35} . إنَّ الدكتور الغذامي ينتقي من أشعار المتنبي ما يتوهَّم أنّها تُناسب أحكامه المُسبقة ، وبذلك فإنَّ الدكتور الغذامي بهذه : " الآلية والروح الإقصائية التي لا تكاد تلامس سطوح الأشياء ، ينفي المتنبي من الحداثة ، ويجرّده من النزعة الإنسانية ، بسبب مدائحيّته ، واكتمال نسقيّته الفحوليّة ، فهو أقلُّ الشعراء اهتماماً بالإنساني وتحقيراً له " {36} ، ولنا أنْ نسأل الدكتور الغذامي : أين نضع شعر المتنبي الذي تناول فيه القيم الإنسانية وقيم الحكمة ؟ : " إنَّه يحمل معها صفات أخرى أكثر إيجابية وأكثر إنسانية ، وتُنبئ باتّساع أفق شخصيّته وفيضها على الآخر ، من خلال رؤيا تعمّق حسن الفضيلة والحق ورفعة الإنسان ، ومن خلال نبذه لكلّ أشكال الخضوع والهيمنة والذلّ في مثل قوله : {من الطويل}

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكْتَهُ ..... وإنْ أنتَ أكرمْتَ اللئيمَ تمرّدا
وموضعُ الندى في موضعِ السيفِ بالعلا..... مضرٌّ كوضعِ السيفِ في موضعِ الندى

وقوله : {من الخفيف}

أينَ فضلي إذا قنعْتُ منَ الدهْـــــــرِ بعيشٍ معجّلِ التنكيد
عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأنتَ كريمُ .....بينَ طعنِ القنا وخفقِ البنودِ
فرؤوسُ الرماحِ أذهبُ للغيظِ .....وأشفَى لِغلِّ صدْرِ الحقودِ

وقوله : {من الخفيف}

مَن يهنْ يسهلِ الهوانُ عليهِ ..... ما لجُرحٍ بميّتٍ إيلامُ " {37}

وكان بإمكان الدكتور الغذامي أن يكون موضوعياً في طروحاته ، وأنْ ينظر إلى ديوان الشاعر نظرة شاملة ، فهو لم يختر من الأمثلة الشعرية إلا تلك التي تتماشى في الظاهر مع أحكامه المُسبقة وكي : " ننصف المتنبي سنورد له ... الذي يُثبت عكس ما ذهب إليه الغذامي ، كونه لا يُبالي بالإنساني ويحقّره ، يقول المتنبي في رثاء أمّ سيف الدولة : {من الوافر}

ولو كانَ النساءُ كمنْ فقدْنا ..... لَفُضِّلَتْ النساءُ على الرجالِ

وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ ..... ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال

فالمتنبي هنا يمجّد ويُعلي من شأن المرأة التي فقدها (التمجيد عكس التحقير) ، حتى أنَّ هذا التمجيد طغى على فحولته ، وفضَّلها على الفحول ، وكأنَّ المتنبي يُجاري الغذامي من حيث فكرة الدفاع عن الأنثى " {38} . ومن هنا فإنَّ تجريد المتنبي من الاهتمام بالإنساني غير قائم على استقراء سليم لشعر الشاعر .

فإذا انتهى الدكتور الغذامي من الأنا المتنبّوية وفحولته في شعره ، انتقل ليتّهم النقاد في صناعة فحولة المتنبي ، متخذاً من قول ابن رشيق القيرواني دليلاً إلى ما ذهب إليه ، يقول الدكتور الغذامي : " وجاء وصف للمتنبي في بعض كتب الأدب أنَّه (كالملك الجبّار يأخذ ما حوله قهراً وعُنوةً) " {39} ، وهذا الوصف الذي ذكره ابن رشيق القيرواني ، لم يجئْ في وصف فحولة المتنبي كما ظنّ الدكتور الغذامي ، إنَّما جاء في معرض حديثه عن نزعة المتنبي في اهتمامه بتكثيف المعنى ، والوصول إليه بأقصر طريق ، وبأقلّ عدد من الألفاظ ، متَّخذاً من ذلك أسلوباً في رسم الصورة وعرض الأفكار . فالدكتور الغذامي استبدل (نسق الفحولة) بمتطلّبات فنّ المتنبي الذي تتزاحم فيه الصور ، ممّا يزيد من ضبابية المعنى وغموضه أحياناً ، وهو من أسرار الإبداع الفني الذي عُرِف به الشاعر .

وربّما حام بعض النقاد القدماء حول هذا المظهر الفني في شعر المتنبي ، لكنّهم لم يدرسوا جوانبه دراسة تكشف عن إبداع الشاعر ، وممّا يقترب من قول ابن رشيق المارّ الذكر ، قول الأصفهاني صاحب الواضح : " فهو سريع الهجوم على المعاني " {40} ، ومن النقاد المُحدثين من أشار إلى هذا المظهر ، دون عناية بالتحليل والدرس ، يقول المازني : " وهو في شعره يأخذ بيدك إلى ما يُريد مباشرةً ، ولا يُطيل اللف والدوران معك إلى غايته ، وهذا من أسباب القوّة ، وليس ممّن يهذرون ، ولا يقدّرون قيمة الاقتصاد " {41} ، ومثل هذه الإشارة نجد عند الدكتور عبد الوهاب عزام ، إذ يقول : " ولأبي الطيب مزية أطلتُ النظر فيها ، وأنا أقرأ شعره ، وهي قدرته على الإبانة عن المعنى الواسع البعيد بألفاظ قليلة قريبة " {42} ، ثم يُورد بعض الأمثلة من شعر الشاعر .

ويتَّهم الدكتور الغذامي المتنبي بأنَّ مدائحه كانت في الظاهر ، أمّا في باطنها فهي ذمٌّ وتحقير للممدوح ، يقول الدكتور الغذامي : " وأمَّا مدائحه فلا شكَّ في نسقيتها ، من حيث إنَّها تضمر الذمَّ من

تحت الثناء ، وإنْ كان الأمر مكشوفاً في قصائده لكافور ، ممّا تحدّث عنه الجميع ، وأعلنه في عيديته المشهورة ، إلا أنّنا هنا نؤكّد أنّ هذا هو ديدنه ، في كلِّ مدائحه حتَّى مع سيف الدولة الحمداني .. ولم يتردّد أن يهزأ بممدوحه فيقول مثلاً : {من الطويل}

تجاوز قدْرَ المدحِ حتّى كأنَّهُ ..... بأحسنَ ما يُثنى عليه يُعابُ

وهو بيت ساخر يُظهر المدح ويُضمر الاستهزاء ، كما لاحظ ابن جنّي " {43} ، ومن الواضح جدّاً أن الدكتور الغذامي يحاول خداع القارئ ، فيذكر أنَّ المتنبي كان يُضمر الذم في مدائحه لسيف الدولة الحمداني ، ولكنَّه بدلاً من أن يأتي ببيت واحد من الشعر يُثبت ذلك ، فإذا به يأتي ببيت في مدح كافور ، ومن المعروف لدى الدارسين أنَّ المتنبي أبطن الهجاء ، في مدائحه لكافور بعد أن كذب عليه الأخير، في حجبه الولاية التي وعده بها ، وها هو الشاعر يذكر ذلك في القصيدة نفسها : {من الطويل}

وهل نافعي أنْ تُرفعَ الحُجْبُ بيننا ..... ودونَ الذي أمَّلْتُ منكَ حجابُ {44}

ويحاول الدكتور الغذامي مرَّة أخرى أنْ يخدع القارئ قائلاً : " ولا يتردّد أيضاً بما أنَّه ممثّل النسق في أنْ يهدّد بعد أنْ مدح ، موظِّفاً بذلك المبدأ النسقي في الرغبة والرهبة ، فيقول : {من البسيط}

مدحْتُ قوماً وإنْ عشْنا نظمْتُ لهم ..... قصائداً من إناثِ الخيلِ والحُصُنِ
تحتَ العجاجِ قوافيها مُضمَّرةً ..... إذا تُنوشِدْنَ لم يدخلْنَ في أُذنِ " {45}

وهذان البيتان أيضاً ليسا من قصيدة في مديح سيف الدولة ، وإنّما هما من قصيدة مدح بها أبا عبد الله محمّد بن عبد الله بن محمّد الخطيب الخصيبي وكان قد تقلّد القضاء بأنطاكية ، وإذا صحّت حكاية أنَّ المتنبي كان يُضمر الذمَّ في مدائحه فكيف يُسهم هذا الذمُّ في صناعة (الطاغية) الممدوح ؟ إن الغذامي ينقض نفسه بنفسه ، ويهدم أحكامه المُسبقة في تعرّضه لشعر المتنبي .

ويحاول الدكتور الغذامي استغفال القارئ متخذاً من قصيدة (واحرَّ قلباه) مثالاً لما دعا إليه بـ (المتنبي النسقي) يقول الدكتور الغذامي : " وكم هو غريب أن تظهر هذه الصفحة ، وكأنّما هي

الأنقى والأصدق ، ممّا يُشعرنا بقدرة النسق على التخفّي والتستّر تحت أغطية كثيفة من بينها الغطاء المجازي ... ولنبدأ مباشرة مع الجملة النسقية التي أراها علامة ثقافية معبّرة وهي قوله : {من البسيط}

إنْ كانَ يجمعُنا حبٌّ لغُرّتِهِ ..... فليتَ أنّا بقدْرِ الحُبِّ نقتسمُ

حيث ترد جملة (حبٌّ لغُرّته) وهي جملة تحمل دلالتين نسقيتين إحداهما ظاهرية تعني محبَّة الشاعر للممدوح (غُرّته)، وهذا ظاهر دلالي خدّاع ، ولو تذكّرنا الدلالة اللغوية للكلمة ، وهي ما تعني : غُرَّة المال ، أي الخيل والجِمال ، والعبيد ، بمعنى خيار المال " {46} ، والدكتور الغذامي يحاول مرَّة أخرى أنْ يخدعنا بأنَّ القصيدة قصيدة مدح في الوقت الذي يعرف هو قبل غيره ممّن درسوا شعر المتنبي ، أنَّ القصيدة هي قصيدة عتاب ، وأيّ عتاب ؟ عتاب بعد أنْ بلغ السيل الزُّبى! فضلاً عن أنَّ الدكتور الغذامي تغافل عن ظروف نظم القصيدة ، إذ : " كان سيف الدولة إذا تأخَّر عنه مدحُهُ شقَّ عليه ، وأكثر أذاه ، وأحضر من لا خير فيه وتقدّم إليه بالتعرّض له في مجلسه ، بما لا يُحبّ ، فلا يُجيب أبو الطيّب أحداً عن شيء ، فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة ، ويتمادى أبو الطيّب على ترك قول الشعر ، ويلجّ سيف الدولة فيما كان يفعله ، إلى أن زاد الأمر وكثر عليه ، فقال هذه القصيدة " {47} . فهي قصيدة عتاب إذن من العيار الثقيل ، وليست قصيدة مدح كما يحاول الغذامي استغفال القارئ بها ، ويتَّضح ذلك من مطلعها :

واحرَّ قلباهُ ممّن قلبُهُ شَبِمُ ..... ومَنْ بجسمي وحالي عندَهُ سَقَمُ {48}

فهو يندب قلبه واحتراقه حبّاً بمن قلبه بارد (قلب سيف الدولة) ، والشاعر سقيم الحال لفساد اعتقاد الأمير به . ومن ظروف نظمها نعلم أنَّ سيف الدولة قد تنصّل عن الشروط التي تعاهد عليها مع الشاعر ، فإذا به يقدّم من هو أقلّ موهبة من المتنبي كالشاعرين الخالديين أبي بكر وعثمان وأبي العبّاس النامي ، وغيرهم من شعراء البلاط الحمداني ، والغريب أنَّ الغذامي يفسّر (حبٌّ لغُرَّتِهِ) بحبّ لخيار المال ، مخالفاً بذلك ما أجمع عليه شرّاح ديوان المتنبي قدماء ومحدثون ، فقد فسّروها : بطلعته وبضيائه وببهائه أي طلعة سيف الدولة ، ومن معاني الغُرّة : أوّل الشيء وأكرمه ، والغُرّة : البياض ، وغُرّة الرجل ناصيته ووجهه ، وغُرّة القوم : سيّدهم وشريفهم ، وغُرّة الهلال : طلعته ، كلُّ هذه المعاني التي يحتملها البيت تركها الدكتور الغذامي ولاذ بغُرّة المتاع : خياره ورأسه ، ليخرج علينا بنسقه

المضمر المشوّه لمعنى البيت ، وإنَّه لأمر مُضحك حقّاً أن يقصد المتنبي خيار المال ، بدلالة عجز البيت (فليت أنّا بقدرِ الحبِّ نقتسم) ، في إشارة واضحة إلى أنه سيكون أوفر حظّاً من غيره من الشعراء في حبّ سيف الدولة ، إذ هو الشاعر الأثير لديه ، وهذا يعني أن (غُرّته) مجاز مرسل علاقته الجزئية ، فيُصبح معنى الصدر : إنْ كان يجمعنا حبٌّ لسيف الدولة ، وليس حبّاً لخيار المال كما يحلو للغذامي أن يُفسّر . وأغرب من هذا كلّه أنَّ الدكتور الغذامي يلجأ إلى كشف النسق المُضمر بالعودة إلى المعنى اللغوي ، لا المجازي ، بل ويختار معنى دون سائر معاني اللفظ (غُرَّة) ، لا لشيء وإنّما إمعاناً منه في تفسير البيت وفقاً لأحكام نسقية مُسبقة كان قد افترضها افتراضاً .

ويمضي الدكتور الغذامي في تجاهل الظروف المُحيطة بالقصيدة ، ويوغل في لَيِّ أعناق الأبيات وفقاً لأحكامه الافتراضية فيقول : " ولذا ذكر الشاعر ممدوحه قائلاً : يا أعدلَ الناسِ إلا في معاملتي ، وكأنَّما يعترض على عدم تناسب الثمن مع البضاعة ، كما هو الشرط النسقي " {49} ! في إشارة منه إلى بيت الشاعر :

يا أعدلَ الناسِ إلا في معاملتي ..... فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحكمُ {50}

وأيّ بضاعة يتحدّث عنها الدكتور الغذامي ؟ فالشاعر يصف سيف الدولة بالعدل مع الجميع إلا معه لأنَّ النزاع والخصام الذي بينهما هو طرف فيه ؛ فأصبح الأمير بذلك هو الخصم والحكم ، : " وهذا البيت ...يمثل المطلع والبداية الحقيقية للقصيدة ، وما أبيات المديح إلا قناع وتغطية ومهارة في التمهيد للهجوم الذي سيقوم به الشاعر " {51} ، بعد أن تعرّض إلى أنواع الإهانة في مجلس سيف الدولة الذي انصاع لسماع أقوالهم ، فأصبح خصماً وحكماً في آنٍ معاً .

وممّا يؤكّد الظروف التي أحاطت بالقصيدة أنَّ المتنبي كان قبل ذلك يتمتَّع بمكانة عند سيف الدولة مدَّة طويلة امتدّت تسع سنين ، ولكنَّ حسّاده حسدوا عليه مكانته ووشوا به عند سيف الدولة حتّى فسدت العلاقة بينهما ، يقول المتنبي :

إنْ كان سرَّكُمُ ما قالَ حاسدُنا.....فما لِجُرْحٍ إذا أرضاكُمُ ألمُ

وبينَنا لو رعيْتُمْ ذاكَ معرفةٌ .....إنَّ المعارفَ في أهلِ النُّهى ذِمَمُ {52}

أيقول هذا الشعر شاعر يُذكِّر ممدوحه بخيار المال أو يعترض على عدم تناسب الثمن مع البضاعة ؟ و يفاجئنا الدكتور الغذامي بقوله : " ونرى في هذا النصّ أربع دلالات نسقية هي :

أ. التعريض المتضمّن للاستهزاء . وسنقف على مؤشرات ذلك من النصّ نفسه ، ولنقرأ هذه الجمل من القصيدة ذاتها :

وما انتقاعُ أخي الدنيا بناظِرِهِ .....إذا استوتْ عندَهُ الأنوارُ والظُّلَمُ
ما كانَ أخلقَنا منكمْ بتكرمةٍ ..... لو أنَّ أمرَكم من أمرِنا أَمَمُ
كمْ تطلبونَ لنا عيباً فيعجزُكُم ..... ويكرهُ اللهُ ما تأتونَ والكرمُ
شرُّ البلادِ مكانٌ لا صديقَ به .....وشرُّ ما يكسبُ الإنسان ما يصِمُ
وشرُّ ما قنصَتْهُ راحتي قَنَصٌ ..... شُهْبُ البُزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ

في هذه الجمل المغلّفة بالجمال الشعري الخدّاع يشرع الشاعر في تحقيق الشرط النسقي ، وهو النظر بازدراء إلى (ممدوحه) ، و(الممدوح) في هذه الجمل ليس موطن محبَّة صادقة .. كما أنَّ (الممدوح) مصاب بعمى الألوان مذ كان لا يميّز بين الشحم والورم ، وتتساوى عنده الأنوار والظلم ، ممّا يعني أنه لم ينتفع بعينيه ... كما أنّ (الممدوح) يبيّت نيّة السوء للشاعر مذ كان مهموماً بالبحث عن عيب يعيب به الشاعر ، وهو فعلٌ لا يقبله الله ولا الخلق الكريم ، أي أنَّ (الممدوح) ناقص المروءة والحس الخلقي والديني ، ومن ثَمّ فإنَّ بلاد (الممدوح) هي شرُّ البلاد وعطاياه شرُّ العطايا " {53} ، ولنا أنْ نسأل الدكتور الغذامي السؤال الآتي : هل هذه المعاني التي اقتنصها من القصيدة ، هي معانٍ ترد في قصيدة مدح أم في قصيدة عتاب ؟ أليس من حق الشاعر أن يعاتب الأمير الحمداني فلا يظن المتشاعر شاعراً ، أو يحسب الورم سمناً ، أويحسب السقم صحَّة ، وهذا تذكير لسيف الدولة لإصغائه إلى الطاعنين عليه والساعين إليه بالوشاية ، ويناشده بألا ينخدع بالمنافقين : " وإنَّ هبات سيف الدولة وإنْ كثُرت على جلالتها وسعتها لا تعادل تقصيره في حقِّه وإيثاره لحسّاده " {54} ، فالشاعر متألم جدّاً لأنّ مكانته الأثيرة قد اهتزّت عند الأمير الحمداني .

وهكذا ينقض الدكتور الغذامي نفسه بنفسه ، فمرّةً يقول : المتنبي شحّاذ ، والشحّاذ كما يعلم الجميع يتوسّل بالمشحوذ منه ، فلا يتعرّض له بالذم والاستهزاء ، بل يُحاول إرضاءه بوسائل شتّى ،

كي يبقى ممدوحه الأثير ، كما فعل البحتري مع خلفاء بني العباس السبعة الذين مدحهم على التعاقب وهم : الواثق ، المتوكّل ، المنتصر ، المستعين ، المعتزّ ، المهتدي ، فالمعتمد ، مدحهم هم ووزراءهم وقادتهم العسكريين وقضاتهم وكتّابهم ، وقد تحدّث القدماء عن كفر البحتري للإحسان وعدم وفائه ، ويضربون المثل في موقفه من المستعين ، إذ كان يمدحه وينال جوائزه ، حتّى إذا تولّى المعتزّ الذي يُرتجى نفعه ، أسرع إليه بقصيدة يمدحه فيها ، إرضاءً وتزلّفاً للخليفة الجديد ، ولخصومة كانت بين المستعين والمعتزّ، فيهجو المستعين هجاءً مقذعاً في مثل قوله :

بكى المنبرُ الشرقيُّ إذْ خارَ فوقَهُ ..... على الناسِ ثورٌ قدْ تدلّتْ غباغِبُهْ {55}

هذا هو الأنموذج الذي يُمكن أنْ يمثل أنموذج الشحّاذ . ومرّة يقول إنَّ المتنبي يزدري (ممدوحه) فكرّر هذا اللفظ ست مرات ، مع أنّ القصيدة هي قصيدة عتاب ، فلم يعد سيف الدولة ممدوح الشاعر في هذه القصيدة ، ألم يقرأ الدكتور الغذامي ختام القصيدة :

هذا عتابُكَ إلا أنّهُ مِقَةٌ ..... قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلا أنَّهُ كَلِمُ {56} ؟

بل أصبح سيف الدولة خصماً للشاعر(فيك الخصام وأنت الخصم والحكم) ، فأيّ مدح يبحث عنه الغذامي ؟! وممّا يعزّز ما ذهبنا إليه أنَّ الغذامي لا يتوقَّف عن وصف هذه القصيدة بقصيدة (مدح) ، يقول الغذامي : " وتلك هي حال (المدائحيات) النسقية في قياسها النظري ، وفي تصوّراتها المتعالية حتّى على من تلجأ إليه ، فالشحّاذ والمشحوذ منه يندمجان في خطاب استخفافي تُبتذل فيه كلّ القيم السلوكية والجمالية " {57} ! وأغرب ما في كلام الغذامي أن يثور الشحّاذ على المشحوذ منه ، في مجلس مُحاط بالأحراس والأتباع ، ويُكيل له كلّ تلك الاتّهامات التي اعترف بها الدكتور الغذامي نفسه ! أما كان من المنطق أنْ يلوذ الشحّاذ بكلّ الوسائل التي من شأنها إرضاء الممدوح ولو تطلّب الأمر إراقة ماء الوجه ، كما فعل البحتري مع ممدوحيه مثلاً ، أو السكوت في أقلّ تقدير ، أمّا أن يثور الشحّاذ هذه الثورة التي عصفت بكيان الأمير الحمداني (الطاغية) كما يحلو للغذامي أن يُسمّيه ، حتّى بلغ الأمر بالشحّاذ أن يقول :

سيعلمُ الجمعُ ممّنْ ضمَّ مجلسُنا ..... بأنَّني خيرُ من تسعى به قدمُ {58}

فصوت المتنبي (الشحّاذ) كما يحلو للدكتور الغذامي أن يُسمّيه ، قد علا حتى بدا أعلى من صوت (الطاغية) المشحوذ منه ، وهو أفضل مِن كل مَن في المجلس ، بمن فيهم سيف الدولة الحمداني !! أيقول شحّاذ مثل هذا الكلام ؟! ونتابع مع الدكتور الغذامي ملاحظاته النسقية على هذه القصيدة :

" ب . اعتداد الذات بذاتيتها : أمّا نظرة الذات لذاتها فهي النظرة التي ظلّ الخطاب الشعري يعزّزها في كبرياء منقطعة النظير ، من حيث تواترها وانتظامها وتماسّها كخطاب قارّ ومترسّخ ، ولننظر في الجمل التالية في النصّ نفسه :

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي ..... وأسمعَتْ كلماتي من به صَمَمُ
الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفُني .....والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ
ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ عن شرفي .....أنا الثريّا وذانِ الشيبُ والهرمُ " {59}

وبذلك يعود الدكتور الغذامي من جديد إلى حديث الأنا والفحولية ، مستكثراً على الشاعر أن يفخر بنفسه في قصيدة عتاب ، وهو الذي فاخر بنفسه في قصائد المديح ، وسامق بقامته قامات الممدوحين الذين يسمّيهم الغذامي (الطواغيت) ، على أنَّ البيت الأول كان (المعرّي) إذا أنشد هذا البيت قال : أنا الأعمى . وكيف لا يفخر بأناه وهو في وضع لا يُحسد عليه ، بعد أن تغيّر عليه قلب الأمير الحمداني ، وألّب عليه شعراء البلاط بزعامة أبي فراس الحمداني ، ليُسمعوه ما لا يحبّ . ويتابع الدكتور الغذامي ملاحظاته النسقية في هذه القصيدة :

"ج . اعتماد أسلوب التخويف والإرهاب البلاغي : ولا تتأكّد مكانة الذات إلا عبر استخدام سلاح الإرهاب البلاغي ، وهذا شرط نسقي جوهري ، فالذات المتشعرنة لا مجال عندها ، للتعايش الحرّ مع أيّ طرف آخر ، وكلّ آخر هو بالضرورة خصم وعدوّ لا بدّ من حفظه دائماً في حالة خوف مستمرّة ، وتهديده وتوعّده دوماً بسحقه أخيراً . وبهذا المعنى النسقي نقرأ للمتنبي في قصيدته تلك :

وجاهلٍ مدَّهُ في جهلِهِ ضحِكي ..... حتّى أتَتْهُ يدٌ فرّاسةٌ وفمُ
إذا رأيْتَ نيوبَ الليثِ بارزةً ..... فلا تظنّنَّ أنَّ الليثَ يبتسمُ " {60}

وهذا تهديد بدهيٌّ لا بدَّ منه لمن اغترَّ ونظر باستخفاف إلى شاعر البلاط الأول ، وأسمعه ما لا يحبّ ، فرُبّ جاهل خدعته مجاملة المتنبي له واغترّ بضحكه ، إذْ تركه في جهله ، فهو يُغضي عن الجاهل ، ويحلم إلى أن يجازيه ويعصف به . فوصَفهم بالجهل لاستمرارهم واسترسالهم للتعرّض له ، وماذا ينتظرون من شاعر كالمتنبي ؟ فإذا كان قد أبدى ابتسامته لهم فليس ذلك رضىً منه ، بل هي الابتسامة التي تسبق الزئير . وأخيراً يذكر الدكتور الغذامي ملاحظته النسقية الأخيرة حول القصيدة إذ يقول :

" د . تحقير الآخر واعتباره دائماً بمثابة خصم لا بدَّ من سحقه : ثمّ يعرّج المتنبي بوصفه شاعراً نسقيّاً على الموضوع الأثير في النموذج النسقي ، ألا وهو تحقير الخصم ، فيصف خصومه بأنَّهم زِعنفة لا تُقبل في ثقافة العرب ولا في ثقافة العجم ، وكأنّما هم خارج حساب التاريخ والوجود " {61} ، مشيراً بذلك إلى بيت الشاعر :

بأيِّ لفظٍ تقولُ الشعرَ زِعنِفةٌ ..... تجوزُ عندكَ لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ {62}

وملاحظة الغذامي هذه هي استكمال لملاحظته السابقة في ذمّ هؤلاء المتشاعرين الذين عرّضوا بالمتنبي في مجلس سيف الدولة ، وهذا هو حال من يتطاول على شاعر كالمتنبي ، فينعتهم بأنّهم أوباش من الشعراء ، فهم ليسوا عرباً لأنَّه ليست لهم فصاحة العرب ، كما أنَّ كلامهم ليس بأعجمي كي تفهمه الأعاجم ، وكأنّي بالدكتور الغذامي يتوقّع من شاعر كالمتنبي الذي عُرِف بشخصيته القويّة ، أنْ يسكت على من تطاول عليه من شعراء أقلّ منه قدراً وموهبة .

حاول الدكتور الغذامي أن يظهر نقده الثقافي بفتح الفتوح في نقد الشعر ، في الوقت الذي بدا فيه يجهل التراث النقدي الذي سمّاه المؤسسة الثقافية المتشعرنة ، إذْ كان تمرّد المتنبي على ما درج عليه الشعراء والنقاد ، حين وضعوا خطوطاً حمراء للشاعر ، لا يجوز له تجاوزها ، مثار استغراب الكثير من النقاد القدماء والمحدثين ، بلْهَ شرّاح الديوان الذين رسموا للشاعر رسوماً تُلزمه بالمحافظة عليها في فنّ المديح : " فقد نظروا إلى الشعر على أنّه مصدر كسب وحرفة وصناعة .. وليس هذا غريباً على نقد يربّي الشعراء والكتّاب ليكونوا خدماً في بلاط الملوك " {63} ، ولكنَّ المتنبي لم يخضع

لكلِّ ما حاوله النقاد وشُرّاح الدواوين ، ليكون نسخة مكرّرة ، يقول الواحدي ت 468 هـ في بيت الشاعر : {من الخفيف}

وأنا منكَ لا يُهَنِّيُّ عضوٌ ..... بالمسرّاتِ سائرَ الأعضاءِ {64}

" وهذا طريقُ المتنبي يدّعي لنفسه المساهمة والكفاءة مع الممدوحين في كثير من المواضع ، وليس ذلك للشاعر ، فلا أدري لِمَ احتُمل ذلك منه " {65} ؟ ثم يأتي العكبري ت 616 هـ ليردّد عبارة الواحدي {66} ، ويوغل في اتّهام الشاعر بالحماقة في مواضع متعدّدة من شرحه {67} . فإذا تركتَ الشرّاح إلى النقّاد وجدْت الثعالبي ت 429 هـ الذي أورد في يتيمته قصيدة الشاعر الشهيرة (واحرّ قلباه) متحصّناً بموقف النقد القديم ، وقد أدّى اعتقاده بهذا الموقف القائم على إلزام الشاعر بالإطناب في ذكر الممدوح ، والاعتقاد بأنّ شخصية الممدوح لا يُمكن اختراق الحواجز المؤدّية إليها ، إلى أن يُخرج قصيدة الشاعر من دائرة الأدب إلى إساءة الأدب {68} !! ولا يختلف موقف ابن رشيق القيرواني ت 456 هـ عن الثعالبي من هذه القصيدة {69} ، وكلّ ذلك يُشير إلى اعتراض المؤسسة الثقافية المتشعرنة على تمرّد المتنبي على توجّهاتها .

وقد تعجب لبعض دارسي شعر أبي الطيب في العصر الحديث ، حين ينعتون الجرأة بالتبجّح {70} ، والعنجهية والصَّلَف {71} ، والتعاظم {72} ، وعدم اللياقة {73} ، وليست المسألة كما وصفوا ، بقدر ما في هذا المظهر الموضوعي من هزٍّ لجدار النقد القديم الذي احتمت وراءه المؤسسة الثقافية المتشعرنة ، إذ : " كان اعتداده بنفسه وثقته بما فيها من العظمة عوناً لقوّة طبعه ، فأبى أنْ يسفَّ بأمله ، حيث يسفّ غيره ، وعرف لشعره قدره ، فعرف الناس له هذا القدر طائعين أو مُكرَهين " {74} ، فقد اعتادوا سماع ذلك منه ، واستمرؤوه ما داموا بانتظار قلائده التي ستخلّدهم مع الأيام .

الخاتمة

{1} بدا الدكتور الغذامي في كتابه {النقد الثقافي} متناقضاً في كثير من الأحيان ، حيثُ إنّه يُبدي رأياً في المتنبي في مكان ما من كتابه ، ثم ينقضه في مكان آخر من حيث لا يدري ، حتّى بدت آراؤه آنيّة يطلقها حسب ما يناسب الطرح الذي يقدّمه . فمرّة يقول عن المتنبي إنّه شحّاذ عظيم ، وفي مكان آخر يقول إنّه صاحب الأنا المتضخّمة فحل الفحول ، فكيف يكون شحّاذاً وفي ذات الوقت صاحب الأنا المتضخمة التي بها يسامق ممدوحيه حتّى لو كانوا من حجم سيف الدولة ، وإنّه يضمر الذم لممدوحيه في قصائد المدح ، بمن في ذلك سيف الدولة الحمداني ، فهل سمعتم بشحّاذ يذمّ المشحوذ منه ؟!

{2} تميز الدكتور الغذامي بالانتقائية في اختيار أمثلته الشعرية من شعر المتنبي ، وغضِّه الطرف عما يفنّد طرحه ، كما لاحظنا في تجريد المتنبي من الإنساني في شعره .

{3} وجدنا أن نقد الدكتور الغذامي ينحاز كثيراً إلى الوجهة الأخلاقية المؤدلجة ، إذ قام بإخضاع شعر المتنبي إلى أحكام مسبقة تصدر عن تلك الوجهة ، بعيداً عن الحقيقة الفنية ، ممّا جعله يقسو كثيراً على الشاعر .

{4} حاول الدكتور الغذامي في نقده شعر المتنبي استغفال القارئ ، فاتخذ من قصيدة (واحرّ قلباه) أنموذجاً لقصائد المديح للشاعر ، في الوقت الذي يعرف الجميع أنّ القصيدة ليست قصيدة مدح بل هي قصيدة عتاب من العيار الثقيل ، فوقع فيما وقع من استنتاجات بعيدة كلّ البعد عن الظروف التي ألمّت بالقصيدة .

هوامش البحث ومصادره

{1} القرآن الكريم ، العلق /6 . 7 .

{2} القرآن الكريم ، النازعات /17.

{3} القرآن الكريم ، النازعات /24 .

{4} المشاكلة والاختلاف قراءة في النظرية وبحث في الشبيه المختلف ، د. عبد الله الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، ط 1 ، لبنان 1994 ، 130.

{5} النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، د. عبد الله الغذامي ، الهيئة العامة لنسور الثقافة ، القاهرة 2010 ، 99 .

{6} النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي ، رسالة ماجستير ، قماري ديامنته ، جامعة قاصدي مرباح . ورقلة . كلية الآداب واللغات 2013 ، 114 .

{7} الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، يوسف البديعي ، تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا وعبده زيادة عبده ، دار المعارف بمصر ، القاهرة 1963 ، 71 .

{8} المتنبي بين البطولة والاغتراب ، محمد شرارة ، جمع وتحقيق حياة شرارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1981 ، 36 .

{9} النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، د. عبد الله الغذامي ، 92 .

{10} م . ن ، 129 .

{11} م . ن ، 129 . والبيت في العرف الطيب ، 198 .

{12} الفتح على أبي الفتح ، ابن فورّجة ، تحقيق عبد الكريم الدجيلي ، بغداد 1974 ، 153 ، والبيتان في العرف الطيب ، 195 .

{13} شعر المتنبي قراءة أخرى ، د. محمد فتوح أحمد ، دار المعارف بمصر ، القاهرة 1983 ، 118 .

{14} في الأدب العباسي ، د. محمد مهدي البصير ، مطبعة النجاح ، بغداد 1949 ، 356 .

{15} العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، ناصيف اليازجي ، دار القلم ، بيروت 1887 .

{16} ينظر أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي ، د. بلاشير ، ترجمة إبراهيم كيلاني ، دمشق 1975 ، 107 .

{17} تنظر القصيدة في العرف الطيب ، 194 .

{18} في الأدب العباسي ، 367 . والبيتان في العرف الطيب ، 75 .

{19} العرف الطيب ، 95 .
{20} أدباء العرب في الأعصر العباسية ، بطرس البستاني ، ط 6 ، بيروت 1968 ، 344 .
{21} حصاد الهشيم ، إبراهيم المازني ، ط 3 ، المطبعة العصرية بمصر ، القاهرة 1948 ، 154 .
{22} وحي الرسالة فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع ، أحمد حسن الزيات ، المجلد الأول ، مكتبة نهضة مصر، القاهرة 1962 ، 284 .
{23} المتنبي بين البطولة والاغتراب ، محمد شرارة ، 58 .

{24} لغة الحب في شعر المتنبي ، د. عبد الفتاح صالح ، عمّان 1983 ، 459 .
{25} الشعر والزمن ، د. جلال الخياط ، بغداد 1975 ، 43 .
{26} النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 172 .
{27} العرف الطيب ، 308 .
{28} الغذامي يُعلن موت النقد الأدبي ، د. حاتم الصكر . صحيفة الاتحاد www.alittihad.com .
{29} العرف الطيب ، 517 .
{30} مراجعات أدبية في نقد النقد الثقافي ، عبد المنعم عجب الفيا ، www.sudanile.com .
{31} م . ن .
{32} العرف الطيب ، 123 ، و 180 .
{33} م . ن ، 335 .
{34} م . ن ، 242 .
{35} الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي الجرجاني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، ط 2 ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة 1951 .
{36} الغذامي حاول أن يورطنا في وهم مضلّل لمفهوم الشعر ، محمد العباس / البحرين www.alyaum.com.
{37} قراءة نقدية في كتاب النقد الثقافي للدكتور عبد الله الغذامي ، د. يوسف حامد جابر ، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها ، السنة الثالثة ، العدد التاسع 2012 ، مجلة فصلية دولية محكمة ، تصدر من جامعة سمنان الإيرانية بالتعاون مع جامعة تشرين السورية . 11و12 .
{38} النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي ، قماري ديامنتة . 116 .

{39} النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 133 . ونص ابن رشيق في العمدة ، 133/1 .
{40} الواضح في مشكلات شعر المتنبي ، أبو القاسم الأصفهاني ، تحقيق محمد طاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر 1968 ، 27 .
{41} حصاد الهشيم ، 142 .

{42} ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ، د. عبد الوهاب عزّام ، ط 3 ، دار المعارف بمصر ، القاهرة 1968 ، 315 .
{43} النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 172 .
{44} العرف الطيب ، 519 .
{45} النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 173 .
{46} م . ن ، 173.
{47} العرف الطيب ، 341 . وينظر : دراسات في الشعر العربي ، عطا بكري ، مطبعة الارشاد ، بغداد 1970 ، 279 .
{48} العرف الطيب ، 341 .
{49} النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 174 .
{50} العرف الطيب ، 342 .
{51} المثال والتحوّل ، 54 .
{52} العرف الطيب ، 344 .
{53} النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 175 . 176 .
{54} التبيان في شرح الديوان ، العكبري ، 373/3 .
{55} ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة د. ت ، 215 .
{56} العرف الطيب ، 345 .
{57} النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 177 .
{58} العرف الطيب ، 342 .
{59} النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 177 . 178 .
{60} م . ن ، 178 .
{61} م . ن ، 179 .
{62} العرف الطيب ، 345 .

{63} الصورة في الشعر العربي القديم حتى آخر القرن الثاني الهجري ، علي البطل ، ط 2 ، دار الأندلس ، بيروت 1981 ، 18 .

{64} العرف الطيب ، 478 .

{65} شرح ديوان المتنبي ، الواحدي ، تصحيح ديتريصي ، طبعة برلين 1276 هـ . 1860 م ، 631 .

{66} التبيان في شرح ديوان المتنبي ، أبو البقاء العكبري ، ضبطه وصحّحه مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة 1355 هـ . 1936 م ، 1/ 32 .

{67} ينظر : م . ن ، 122/1 و 157/2 .

{68} يُنظر : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، أبو منصور الثعالبي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط2 ، مطبعة السعادة ، القاهرة 1377 هـ ، 208/1 .

{69} يُنظر : العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط 3 ، مطبعة السعادة في مصر ، القاهرة 1963 ، 164/2 .

{70} يُنظر : أدباء العرب في الأعصر العباسية ، بطرس البستاني ، 344 .

{71} يُنظر : المتنبي ، جورج غريب ، دار الثقافة ، بيروت 1967 ، 190 .

{72} يُنظر : المتنبي شاعر تتوهج ألفاظه فرساناً ، د. علي شلق ، بغداد 1977 ، 137 .

{73} يُنظر : الحماسة في شعر المتنبي ، محمد تقي الحسني ، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة ، بغداد 1997 . ، 92 .

{74} مطالعات في الكتب والحياة ، عباس محمود العقاد ، ط 3 ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1966 ، 205 .

Summary

We dealt with in this section delusions that killed Dr. Abdullah Algthmami himself in his book Monetary Althaglvi read in the Arab cultural formats when taken Mutanabi hair It is so Dr began to write contradictory cultural criticism often where he express an opinion somewhere in the book, then overruled in last place in terms of Edery even Araoh the vessels fired by what fits IPO, which provided Again and says Mutanabi It's a great beggar in the place seemed another says that his ego inflated stallion stallions, how is he beggar At the same time the owner of a bloated ego that it Eesamq Mamdouhah even if they are the size of Sayf al-Dawla tyrant as she likes to call Dr. Algmami and he holds a slander to Mamdouhah Did you hear Bahaz harbored slander of whetted him ?

characterize Dr. Algthmami selectivity in the choice of examples of poetic Mutanabi hair and lush than confounds party put forward as we have seen in the stripping of human hair Mutanabi .

We found that Nkdalgmama biased very much to the moral destination ideological as the Mutanabi subjecting the hair to prejudgments issued for that destination away from the technical fact, making it hardens too much on Mutanabi .

Algmami tried in his criticism of the hair Algthmami fool who took to the reader of the poem and the hottest Qbeh model for praise poems of the poet at the time known as Table Co time pied glossy that the poem is not a poem but a eulogy to reproach caliber .